تاريخ ظهور وتعاطى المخدرات:

ورد فى تراث الحضارات القديمة آثار كثيرة تدل على معرفة الإنسان بالمواد المخدرة منذ تلك الأزمنة البعيدة، وقد وجدت تلك الآثار على شكل نقوش على جدران المعابد أو كتابات على أوراق البردى المصرية القديمة أو كأساطير مروية تناقلتها الأجيال. فاهندوس على سبيل المثال كانوا يعتقدون أن الإله (شفيا) هو الذى يأتى بنبات القنب من المحيط، ثم تستخرج منه باقى الآلهة ما وصفوه بالرحيق الإلهى ويقصدون به الحشيش.

ونقش الإغريق صورًا لنبات الخشخاش على جدران المقابر والمعابد، واختلف المدلول الرمزى لهذه النقوش حسب الآلهة التى تمسك بها، ففى يد الآلهة (هيرا) تعنى الأمومة، والآلهة (ديميتر) تعنى خصوبة الأرض، والإله (بلوتو) تعنى الموت أو النوم الأبدى.

أما قبائل الإنديز فقد انتشرت بينهم أسطورة تقول بأن امرأة نزلت من السماء لتخفف آلام الناس، وتجلب لهم نومًا لذيذًا، وتحولت بفضل القوة الإلهية إلى شجرة الكوكا حيث كان الهنود يقطفون أوراق نبات الكوكا ويقومون بتحويله إلى عصير سمى بمشروب الكوكا وأصبح مشروبًا شعبيًا لديهم.

وفيما يأتى نتناول تاريخ أشهر أنواع المخدرات التى عرفها الإنسان.

أولاً: الكحوليات

تعتبر الكحوليات من أقدم المواد المخدرة التى تعاطاها الإنسان، وكانت الصين أسبق المجتمعات إلى معرفة عمليات التخمير الطبيعية لأنواع مختلفة من الأطعمة، فقد صنع الصينيون الخمور من الأرز والبطاطا والقمح والشعير، وتعاطوا أنواعًا من المشروبات كانوا يطلقون عليها "جيو" أى النبيذ، ثم انتقل إليهم نبيذ العنب من العالم الغربى سنة ٢٠٠ قبل الميلاد تقريبًا بعد الاتصالات التى جرت بين الإمبراطوريتين الصينية والرومانية. واقترن تقديم المشروبات الكحولية فى الصين القديمة بعدد من المناسبات الاجتماعية مثل تقديم الأضاحى للآلهة أو الاحتفال بنصر عسكرى.

وهذا نموذج ليس متفردًا فى قدم وتلقائية معرفة الإنسان للكحوليات، كما لهذا النموذج شبيه فى الحضارات المصرية والهندية والرومانية واليونانية، كما عرفت الكحوليات المجتمعات والقبائل البدائية فى أفريقيا وآسيا.

ثانيًا: الحشيش (القنب الهندى)

القنب كلمة لاتينية معناها ضوضاء، وقد سمى الحشيش بهذا الاسم؛ لأن متعاطيه يحدث ضوضاء بعد وصول المادة المخدرة إلى ذروة مفعولها. ومن المادة الفعالة فى نبات القنب هذا يصنع الحشيش، ومعناه فى اللغة العربية "العشب" أو النبات البرى، ويرى بعض الباحثين أن كلمة حشيش مشتقة من الكلمة العبرية "شيش" التى

تعنى الفرح، انطلاقًا مما يشعر به المتعاطى من نشوة وفرح عند تعاطيه الحشيش. وقد عرفت الشعوب القديمة نبات القنب واستخدمته فى أغراض متعددة، فصنعت من أليافه الحبال وأنواعًا من الأقمشة، واستعمل كذلك فى أغراض دينية وترويحية. ومن أوائل الشعوب التى عرفته واستخدمته الشعب الصينى، فقد عرفه الإمبراطور «شن ننج» عام ٢٧٣٧ق.م وأطلق عليه حينها واهب السعادة، أما الهندوس فقد سموه مخفف الأحزان.

وفى القرن السابع قبل الميلاد استعمله الآشوريون فى حفلاتهم الدينية وسموه نبتة "كونوبو"، واشتق العالم النباتى "لينـاوس" سنة ١٧٥٣م من هذه التسمية كلمة "كنابيس" Cannabis. وكان الكهنة الهنود يعتبرون الكنابيس (القنب ـ الحشيش) من أصل إلهى لما له من تأثير كبير، واستخدموه فى طقوسهم وحفلاتهم الدينية، وورد ذكره فى أساطيرهم القديمة ووصفوه بأنه أحب شراب إلى الإله "آندرا"، ولا يزال يستخدم هذا النبات فى معابد الهندوس والسيخ فى الهند ونيبال ومعابد أتباع شيتا فى الأعياد المقدسة حتى الآن.

وقد عرف العالم الإسلامى الحشيش فى القرن الحادى عشر الميلادى، حيث استعمله قائد القرامطة فى آسيا الوسطى حسن بن صباح، وكان يقدمه مكافأة لأفراد مجموعته البارزين، وقد عرف منذ ذلك الوقت باسم الحشيش، وعرفت هذه الفرقة بالحشاشين.

أما أوربا فعرفت الخشيش فى القرن السابع عشر عن طريق حركة الاستشراق التى ركزت فى كتاباتها على الهند وفارس والعالم العربى، ونقل نابليون بونابرت وجنوده بعد فشل حملتهم على مصر فى القرن التاسع عشر هذا المخدر إلى أوربا. وكانت معرفة الولايات المتحدة الأمريكية به فى بدايات القرن العشرين، حيث نقله إليها العمال المكسيكيون الذين وفدوا إلى العمل داخل الولايات المتحدة.

ثالثا: الأفيون

أول من اكتشف الخشخاش (الأفيون) هم سكان وسط آسيا فى الألف السابعة قبل الميلاد ومنها انتشر إلى مناطق العالم المختلفة، وقد عرفه المصريون القدماء من الألف الرابعة قبل الميلاد، وكانوا يستخدمونه علاجًا للأوجاع، وعرفه كذلك السومريون وأطلقوا عليه اسم نبات السعادة، وتحدثت لوحات سومرية يعود تاريخها إلى ٣٣٠٠ ق.م عن موسم حصاد الأفيون، وعرفه البابليون والفرس، كما استخدمه الصينيون والهنود.

ثم انتقل إلى اليونان والرومان ولكنهم أساءوا استعماله فأدمنوه، وأوصى حكماؤهم بمنع استعماله، وقد أكدت ذلك المخطوطات القديمة بين "هوميروس" و"أبو قراط" ومن "أرسطو" إلى "فيرجيل".

وعرف العرب الأفيون منذ القرن الثامن الميلادى، وقد وصفه ابن سينا لعلاج التهاب غشاء الرئة الذى كان يسمى وقتذاك "داء ذات

الجنب" وبعض أنواع المغص، وذكره داود الأنطاكى فى تذكرته المعروفة باسم "تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب" تحت اسم الخشخاش. وفى الهند عرف نبات الخشاش والأفيون منذ القرن السادس الميلادى، وظلت الهند تستخدمه فى تبادلاتها التجارية المحدودة مع الصين إلى أن احتكرت شركة الهند الشرقية التى تسيطر عليها إنجلترا فى أوائل القرن التاسع عشر تجارته فى أسواق الصين. وقد قاومت الصين إغراق أسواقها بهذا المخدر، فاندلعت بينها وبين إنجلترا حرب عرفت باسم حرب الأفيون (١٨٣٩ ـ ١٨٤٢) انتهت بهزيمة الصين وتوقيع معاهدة نانكين عام ١٨٤٣ التى استولت فيها بريطانيا على هونج كونج، وفتحت الموانئ الصينية أمام البضائع الغربية بضرائب بلغ حدها الأقصى ٥٪.

واستطاعت الولايات المتحدة الأمريكية الدخول إلى الأسواق الصينية ومنافسة شركة الهند الشرقية فى تلك الحرب، فوقعت اتفاقية مماثلة عام ١٨٤٤، وكان من نتائج تلك المعاهدات الانتشار الواسع للأفيون فى الصين، فوصل عدد المدمنين بها عام ١٩٠٦ على سبيل المثال ١٥ مليونًا، وفى عام ١٩٢٠ قدر عدد المدمنين بـ٢٥٪ من مجموع الذكور فى المدن الصينية. واستمرت معاناة الصين من ذلك النبات المخدر حتى عام ١٩٥٠ عندما أعلنت حكومة ماوتسى تونغ بدء برنامج فعال للقضاء على تعاطيه وتنظيم تداوله.

رابعًا: المورفين

وهو أحد مشتقات الأفيون، حيث استطاع العالم الألماني "سير تيرز" عام ١٨٠٦ من فصله عن الأفيون، وأطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى الإله "مورفيوس" إله الأحلام عند الإغريق. وقد ساعد الاستخدام الطبي للمورفين في العمليات الجراحية خاصة إبان الحرب الأهلية التي اندلعت في الولايات المتحدة الأمريكية (١٨٦١) ومنذ اختراع الإبرة الصينية أصبح استخدام المورفين بطريقة الحقن في متناول اليد.

خامسًا: الهيروين

وهو أيضًا أحد مشتقات المورفين الأشد خطورة، اكتشف عام ١٨٩٨ وأنتجته شركة "باير" للأدوية، ثم أسيء استخدامه وأدرج ضمن المواد المخدرة فائقة الخطورة.

سادسًا: الأمفيتامينات (المنشطات)

تم تحضيرها لأول مرة عام ١٨٨٧ لكنها لم تستخدم طبيًا إلا عام ١٩٣٠، وقد سوقت تجاريًا تحت اسم البنزورين، وكثر بعد ذلك تصنيع العديد منها مثل الكيكيدرين والمستيدرين والريتالين. وكان الجنود والطيارون في الحرب العالمية الثانية يستخدمونها ليواصلوا العمل دون شعور بالتعب، لكن استخدامها لم يتوقف بعد انتهاء الحرب، وكانت اليابان من أوائل البلاد التي انتشر تعاطي هذه العقاقير بين شبابها حيث قدر عدد اليابانيين الذين يتعاطونها بمليون

ونصف المليون عام ١٩٥٤، وقد حشدت الحكومة اليابانية كل إمكاناتها للقضاء على هذه المشكلة ونجحت بالفعل فى ذلك إلى حد كبير عام ١٩٦٠.

سابعًا: الكوكايين

عرف نبات الكوكا الذى يستخرج منه الكوكايين فى أمريكا الجنوبية منذ أكثر من ألفى عام، وينتشر استعماله لدى هنود الأنكا، وفى عام ١٨٦٠ تمكن العالم "ألفرد نيمان" من عزل المادة الفعالة فى نبات الكوكا، ومنذ ذلك الحين زاد انتشاره على نطاق عالمى، وبدأ استعماله فى صناعة الأدوية نظرًا لتأثيره المنشط على الجهاز العصبى المركزى، ولذا استخدم بكثرة فى المشروبات الترويحية وبخاصة الكوكاكولا، لكنه استبعد من تركيبتها عام ١٩٠٣، وروجت له بقوة شركات صناعة الأدوية وكثرت الدعايات التى كانت تؤكد على أن تأثيره لا يزيد على القهوة والشاى، ومن أشهر الأطباء الذين روجوا لهذا النبات الطبيب الصيدلى الفرنسى "أنجلو ماريان"، واستخدمته تلك الشركات فى أكثر من ١٥ منتجًا من منتجاتها.

وانعكس التاريخ الطويل لزراعة الكوكا فى أمريكا اللاتينية على طرق مكافحته فأصبحت هناك إمبراطوريات ضخمة - تنتشر فى البيرو وكولومبيا والبرازيل - لتهريبه إلى دول العالم، وتمثل السوق الأمريكية أكبر مستهلك لهذا المخدر فى العالم.

ثامنًا: القات

شجرة معمرة يتراوح ارتفاعها ما بين متر إلى مترين، تزرع فى اليمن والقرن الأفريقى وأفغانستان وأواسط آسيا.

اختلف الباحثون فى تحديد أول منطقة ظهرت بها هذه الشجرة، فبينما يرى البعض أن أول ظهور لها كان فى تركستان وأفغانستان، يرى البعض الآخر أن الموطن الأصلى لها يرجع إلى الحبشة.

عرفته اليمن والحبشة فى القرن الرابع عشر الميلادى، حيث أشار المقريزى (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢) إلى وجود "شجرة لا تثمر فواكه فى أرض الحبشة تسمى بالقات، حيث يقوم السكان بمضغ أوراقها الخضراء الصغيرة التى تنشط الذاكرة وتذكر الإنسان بما هو منسى، كما تضعف الشهية والنوم"..

وقد انتشرت عادة مضغ القات فى اليمن والصومال، وتعمقت فى المجتمع وارتبطت بعادات اجتماعية خاصة فى الأفراح والمآتم وتمضية أوقات الفراغ، مما يجعل من مكافحتها مهمة صعبة. وكان أول وصف علمى للقات جاء على يد العالم السويدى "بير فورسكال" عام ١٧٦٣.

عالمية مشكلة المخدرات

يعتبر الإدمان على المخدرات فى عصرنا هذا ضريبة المجتمعات الحرة المتقدمة، وقد تعقدت المشكلات وتفاقمت واستعصت على الحل حتى على أيدى أبرع العلماء والخبراء. فلم تعد المشكلة قاصرة على نوع واحد من المخدرات أو على قطر معين أو طبقة محددة من المجتمع.

أينما توجهت فى أقطار الأرض من مشرقها أو مغربها أذهلك انتشار الإدمان على المخدرات فى جميع الطبقات بعد أن كان مقتصرًا فى الماضى على الطبقات الراقية المترفة.

وتعتبر مشكلة المخدرات فى الوقت الراهن من أكبر المشكلات التى تعانى منها دول العالم لما لها من أضرار جسيمة على النواحى الصحية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية. لقد أصبحت المخدرات متفشية فى كل أنحاء العالم نظرًا لتنوع المخدرات وانتشار تجارتها بصورة واسعة، فيقع الإنسان فريسة الإدمان من جهل وضعف الوازع الدينى مما ينتج عنه آثار وأضرار خطيرة على صحة الفرد والمجتمع، كذلك على اقتصاد الوطن من جراء فقدانه عنصرًا فاعلًا وهو الشباب، فبهم تبنى الدول حاضرها وتشق الطريق إلى مستقبلها.

ففى خلال السنوات الماضية ظهرت فى الأسواق مركبات عديدة

جديدة تتمتع بتأثير واضح على الجهاز العصبي والدماغ، وتؤدي إلى انحراف عقلي واضح، حتى أن كثيرًا منها يؤدي إلى الاستعباد نتيجة الإدمان والحاجة الماسة للمخدر التي تنشأ عن هذا الإدمان.

وعلى الرغم من الجهود التي تبذلها الدول لمحاربة المخدرات والقضاء عليها وتعقب مروجيها وعلاج مدمنيها، إلا أن المخدرات أصبحت آفة تطالعنا كل يوم بوجهها القبيح تدمر مقومات المجتمع وتقيض كيانه الاقتصادي والأمني.

ويوجد اعتقاد خاطئ شائع بأن من تعاطى المخدرات يومًا لن يقلع عنها أبدًا.

إن تقدير حجم مشكلة الإدمان أمر بالغ الصعوبة، حيث إن المدمن لا يعلن عن نفسه، وعلى العموم فإن الدراسات تشير إلى أن الإدمان في تزايد مستمر عالميًا ومحليًا ويشاهد الإدمان في الطبقات الدنيا أكثر من الطبقات العليا، ولدى المنحرفين والمجرمين أكثر من الأسوياء، ويوجد لدى الذكور أكثر من الإناث، ولدى التعساء أكثر من السعداء، ولدى الشباب أكثر من الأعمار الأخرى.

إن "انتشار المخدرات... أخطر ما يهدد دول العالم" هكذا بدأ السفير شعيب مولاه السكرتير العام المساعد للأمم المتحدة للشئون الاقتصادية والاجتماعية حديثه عن المخدرات في أثناء زيارته للرياض للمشاركة في أحد المؤتمرات الدولية في حديث أدلى به لـ (الأمن والحياة) العدد ٤٩، سنة ١٤٠٦هـ، بأن مشكلة تعاطي المخدرات

وتهريبها والإتجار بها من المشكلات الكبرى التى تجتاح العالم بأسره. ومنذ أن عرف المجتمع الدولى مدى خطورة هذه المشكلة وهو يبذل كل الجهد فى محاربتها بشتى أنواعها بوضع أنظمة للرقابة عليها.

وتحرص التقارير الصادرة عن أجهزة هيئة الأمم المتحدة المهتمة بمشكلة المخدرات على تأكيد الصلة بين جرائم الإتجار غير المشروع فى المخدرات من ناحية وجرائم العنف والإرهاب من ناحية أخرى.

وإن الأرقام تدل على مدى تفاقم الداء وضرورة الحد منه والوقاية والعلاج، حيث انتشر الإدمان على جميع المستويات والفئات؛ فالفقير يدمن، والغنى يدمن، والصغير يدمن وكذلك الكبير، وتفرط المرأة فى استخدام المهدئات ويدمن الرجل استعمال الأدوية.

أما على صعيد العالم العربى والإسلامى.. فقد وجد المهربون فيهما أسواقًا رابحة. وكان السبب فى ذلك أساليب الاستعمار الذى يسعى إلى تحقيق انتشار المخدرات لتدمير الشعوب والتمكن من السيطرة عليها واستذلالها بهذه السموم. وسبب انتشارها فى العالم الإسلامى هو اعتقاد ضعفاء المسلمين أن الإسلام لا يحرم تعاطى المخدرات حيث إن المخدرات لم تكن معروفة وقت نزول القرآن الكريم. ولكنها لم تكن حجة قوية تبرر موقفهم، فهناك أسباب أقوى دعت إلى أن تصبح مشكلة المخدرات عالمية.